الفصل الأول

عمر فى جاهليته

استهل ذو القعدة لسنوات قبل مبعث النبى ، فأقبل العرب أفواجاً يحدون إبلهم من شتى الأرجاء فى شبه الجزيرة ليقيموا سوق عكاظ كعادتهم قبل الحج من كل عام . وكانت السوق تضطرب بمن جاءوا إليها من مختلف القبائل ، وفيهم من أهل مكة عدد غير قليل . وقد أقام هؤلاء العرب مضاربهم فى فسحة البطحاء المترامية التى تقوم السوق عليها ، ثم جعلوا ناحية منها للتجارة . وفى هذه الناحية أقام جماعة أمام مضاربهم متاجر يعرضون فيها سلعاً قلَّ منها ماكان من صناعة الحجازيين أنفسهم ، فى حين قد جاء أهل مكة ومن إليهم بأكثرها من اليمن ومن الشام فى رحلتى الشتاء والصيف . والناس يؤمُّون هذه المتاجر رجالاً ونساء ، يبتاعون منها ما يشاءون . وأكثر ما تقف النسوة عند البَزَّازين بائعى الأقمشة والثياب ، يقلِّبن بين أيديهن شتى ألوانها ، ثم يخترن من نسج اليمن أو صناعة الشام ماتهوى إليه قلوبهن . فإذا كانت بينهن مليحة جذبت إلى المضرب من الشبان والرجال من يتظاهرون بالشراء ، وإن كانوا أشد حرصاً على اجتلاء جمال المليحة منهم على مس الحرائر والمتاع بألوانها واقتناء ما يعجب منها . وعلى مقربة من هذه المتاجر قامت حلقات اللهو يؤمها الشبان طرفاً من النهار وأطرافاً من الليل ؛ ولا تأبى الحسان أن يكن على مقربة منها . فإذا أقبل الليل ذهب الشبان يحتسون الشراب حتى تميل أعناق بعضهم ، ثم تركوا لنوازع اللهو والهوى العنان . وكم أدت هذه النوازع إلى مهاترات ومصاولات بدأت طفيفة ثم تجسمت ، حتى انتهت إلى قتال بين القبائل امتد على السنين .

قام شاعر يوماً فى جانب السوق ينشد قصيدة له ؛ يتغزل فى مطلعها ، ثم ينتقل من الغزل إلى المفاخرة بنفسه وبقبيلته ، ثم إلى التعريض بقبيلة نازعت قبيلته العام الفائت وإلى النيل منها . والتفَّ حول هذا الشاعر المجيد حلقة من أهل السوق تسمع له وتستجيد غزله . فلما انتقل من الغزل إلى الفخر صفق له قوم طرباً ، وصاح به آخرون إنكاراً واستهجاناً . أما إذا انتقل إلى التعريض بالقبيلة التى خاصمت قبيلته وإلى النيل منها ، فها هى ذى صيحات الطرب وصيحات الإنكار تنقلب نزاعاً عنيفاً يحرك السيوف فى غمودها . فلما أتم

الشاعر قصيدته قام شيخ ذو حكمة ودعا القوم إلى السلم ، وما زال بهم حتى جنحوا لها .

كان بين الذين يستمعون لهذا الشاعر شاب تُجاوز سنه العشرين ، ضخم جسيم مديد القامة ، تعلو هامته هامات الجمع كله ، أبيض اللون تعلوه حمرة تضرب بلونه إلى السمرة . وقد كان ينصت إلى الشاعر إنصات إعجاب يدفعه ليهز رأسه الحين بعد الحين ، آية اغتباطه بما سمع وطربه له ودقة تذوقه إياه . لم يشارك الصائحين فى صياحهم ، لأن مفاخرة الشاعر بقبيلته لم تَعْنه ، وتعريضه بالقبيلة الأخرى لم يَعْنه كذلك ؛ فهو ليس من هذه القبيلة ولا من تلك ، بل لعل القبيلتين كانتا بعيدتين عن موطنه بعداً زاده انصرافاً عن أمرهما إلى المتاع بجمال الشعر الذى يسمعه . وأتم الشاعر قصيدته فأقام الفتى ينصت لما يقول الحكيم . فلما جنح القوم للسلم انصرف يتقدم جماعة من أصحابه مسرعاً فى مشيته حتى لقد شق على تابعيه أن يلحقوا به . ذلك لأنه كان أروَحَ فى رجليه سعة فلا يعرف فى المشى بطئاً . وكان أصحابه يحادثونه علّهم يستوقفونه فلا يفوتهم بسعة خطوه . واتصل هذا الحديث متنقلاً من الحوار الهادئ إلى جدل فيه عنفٌ وشدة . عند ذلك وقف الشاب ، وقد احمرَّت عيناه وبدت عليه أمارات الغضب ، فنفخ وفتل شاربه الطرير وقال :

– بهذا الفتى تخوّفوني ! ! لست للخطاب إن لم أصرعه لأول ما ألقاه ! !

واندفع فى طريقه أكثر إسراعاً ، حتى كانت خطوات أصحابه من خلفه أدنى إلى الهرولة منها إلى السير . فلما بلغوا حلقة المصارعة المنصوبة فى جانب من عكاظ ألفوا فتياناً أشدَّاء مفتولى العضل يشهدون أحدهم جاثماً على صدر صاحبه وقد ألقاه إلى الأرض صريعاً . وما لبث القوم حين رأوا عمر بن الخطاب يسير إليهم أن فسحوا له طريقاً . وقام المتصارعان فوقفا مع النظارة وأيقنا أن عمر لم يجئ شاهداً وإنما جاء مصارعاً . وأدار عمر بصره فى الحاضرين ولا يزال الغضب آخذاً منه . فلما صادف الفتى الذى دار عنه الحديث بينه وبين أصحابه دعاه لينازله . وابتسم الفتى وتقدم حتى توسط الحلقة ، وهو أشد ما يكون اطمئناناً إلى نفسه وثقته بقوته ومقدرته . إنه لم يصارع عمر من قبل ، فهذه أول مرة جاء فيها مع قبيلته إلى عكاظ ؛ لكنه لم يُغْلَبْ مرة منذ جاء ، حتى لقد هابه الأقران وحسبوا حسابه . وكان يقرب عمر طولاً وجسامة . وتقدَّم إليه عمر يصاوله . وحاول الفتى البدوى أن يصرع عمر ، وأبدى من ضروب المهارة فى النزال ما جعل النظارة يتكاثرون ويزداد عددهم إلى ما لم يألفه أحد من قبل . وأقبلت فتيات كن على مقربة من المكان سمعن إسمى المتصارعين ، فحرصن على أن يرين ما سيكون منهما . فقد عرفن ، كما عرف الناس فى

الأعوام التى خلت ، أن ابن الخطاب لا غالب فى المصارعة له . فلما أقبل هذا البدوى وصرع كل الذين صارعوه ، رجا أهل عكاظ جميعاً أن يصارع ابن الخطاب ، وراهن بعضهم بعضاً لأى الفتيين يكون الغلب . فلما دعا عمر صاحبه للمصارعة سرى النبأ فى السوق كلها مسرى البرق ، وأقبل كل من لم يمسكه عمله ، يريد أن يأخذ من هذا المشهد بنصيب . وترك عمر صاحبه زمناً يحاوره ويحتال ليصرعه ، وهو منه فى موقف المدافع ، لا يبذل من الجهد ما يبذل البدوىّ البارع . فلما أحسّ به هاضه الجهد انقضّ عليه فركب أكتافه وألقاه على الأرض صريعاً . وضجت الحلقة بذكر عمر ومقدرته ، وتذاكر شهودها سابق فعاله فى مثل هذه المواقف . ولم تكن الفتيات والنساء أقل من الرجال والفتيان إشادة بالفتى القرشى النبيل ذى الأيْد .

بدأت الشمس بعد قليل تنحدر إلى المغيب ، وبدأ النظارة ينصرفون كل إلى مقصده . وصار عمر يجوس خلال السوق وأصحابه من حوله يبدون من الإعجاب به ما يكافئهم عنه بابتسامة قلّما كانوا يرونها مرتسمة على مُحيَّاه . وهو لم يكن يخص أصحابه بهذه الابتسامة ؛ فقد كان يرى أبصار من يمر بهم شُدَّت إليه وهم أشد من أصحابه إعجاباً به ، ويرى فتيات يشرن إليه ويتهافتن يردن أن يحظَين منه بنظرة رضا عنهن أو هوى لحسن المليحة منهن ، فيبعث ذلك إلى نفسه من أسباب الرضا ما تعبر هذه الابتسامة عنه .

وجن الليل فمال فى أصحابه إلى ملهى قام على حافةالسوق ، تنفسح البادية من ورائه إلى مدى الأفق . وتخير عمر أدنى مكان من البادية فجلس فيه بعد أن أهدى تحية المساء لمن مر بهم من معارفه الكثيرين الذين ردوا تحيته بأحسن منها ، وأضافوا من عبارات الإعجاب به والثناء عليه ما أعجبه . وأقبلت خمارة هيفاء تتهادى وكل نظرها إلى الفتى الظافر ، وقد طوَّقت ثغرها ابتسامة بدت من خلالها ثناياها الغُرّ العِذَاب . وأبدى عمر فى حديثه إليها سماحة لم يبدها منذ أقيمت السوق ، فلم تأب أن تتيه دلا عليه . وبعد هنيهة عادت أدراجها ثم كرت راجعة تحمل الخمر المعتقة لهؤلاء الشاربين الأوفياء الذين لم يقضوا من ليالى السوق ليلة فى غيَر حانتها . وكان عمر بين أصحابه يشرب بالكبير ، ويشرب سائرهم بالصغير . وتقدَّم الليل والفتيان يشربون ويسمرون ، ينتقل بهم الحديث من الجد إلى المجانة ، ومن الغزل بالنساء إلى ركوب الخيل ، ومن أيام العرب إلى أنسابها ، وعمر يُفيض فى ذلك كله إفاضة علىم حلت الخمر عقدة لسانه ، وزاده الظفر بصاحبه البدوى

إقبالا على الحديث واسترسالا فيه . وفيما يتذاكرون فارساً رأوه ضحىً يركب جواداً ينهب به الأرض ، صاح عمر :

– واللات والعزى لقد خلتنى إياه إعجاباً بقدرته على رياضة جواده ! .

وابتسم صاحبه الذى حاوره من قبل فى أمر البدوى المصارع وقال :

– تغفر العزى لابن عمك زيد بن عمرو قوله :

فلا العُزّى أَدينُ ولا ابنتَيْهـا ولَا صَنَمَىْ بنى طَسْم أَديـرُ
أَربًّا واحـداً أَم أَلفَ ربٍّ أَدينُ إذا تقسَّمتِ الأُمـورُ !

وتجهم عمر لما سمع من ذلك قال :

– تبًّا له ! ولا غفرت العزى كفرانه ! خيراً فعل الخطاب إذ أخرج ابن أخيه من مكة ومنعه من أن يدخلها منذ فارق ديننا ، وعادى أوثاننا ، وصبأ يلتمس إلهاً عند اليهود والنصارى،فلم يظفر من هؤلاء ولا من أولئك بخير فزعم أنه على دين أبيه إبراهيم . ولو أن الخطاب ترك لى أمره لصرعته فأوردته حتفه .

وينتقل الحديث من بعد إلى شئون أدعى إلى طمأنينة النفس . وإن القوم لفى سمرهم إذ طرقت سمعهم أصوات ناعمة لعذارى خرجن من مضاربهن إلى فسحة البادية ينعمن فيها بأسرار الليل أو يقضين فيها بعض شأنهن . وأمسك عمر عن الحديث وكأنما لعبت هذه الأصوات بفؤاده . فلما رآه أصحابه أمسك أجالوا فيه أبصارهم ، فإذا هو يهمّ بالقيام ويقول : سأدعكم هنيهةً لبعض شأنى وسرعان ما أعود . وابتسموا ، فصاحبهم صاحب نساء كما أنه صاحب خمر . وقصد عمر إلى ناحية الصوت الناعم ، فسمع غانية تقول لصاحباتها : هذا عمر يَقْدَمُنا ، فلنخيِّل إليه أننا نفرّ منه كي لا يصرعنا ، فلما اقترب منهن تظاهرت كلٌّ بالفرار إلى ناحية ، ولم تبق إلا هاته الغانية أسقطت خمارَها ، وزعمت أنها تصلحه . وعرفها ابن الخطاب صاحبته التى لقيها منذ أيام ، فسعد معها بأحلى سويعات عكاظ هذا العام .وأدركت صاحباتها حيلتها فتعالت أصواتهن بضحكات السخط والسخر والغيرة . وعاد عمر إلى أصحابه على موعد منها . ولم يطل به المقام حتى نقد الخمارة قدر ما شربوا ، ثم انصرف عن أصحابه إلى حيثما اتفق .

كان النهار ضحى حين لقى عمر أصحابه كرة أخرى ، وقد تذكروا مصارعة أمس وما أبدى عمر فيها من مهارة ، وتمنّوا لو أن عمر صارع صاحبه كرة أخرى حتى يصرعه ، فلا تقوم لهذا البدوى من بعد فى ميدان المصارعة قائمة . وخالفهم عمر ورأى فى قولهم

ما لا تقره الشهامة . إنه الفائز ، فإذا أراد صاحبه أن يثأر لنفسه فلن يتردد فى مصاولته . لكنه لن يبدأه بالدعوة إلى هذه المصاولة ولن يتحدّاه . والسوق بعد موشكة على ختامها . فبعد ثلاثة أيام ينصرف الناس عن عكاظ إلى مجنّة ليتجهزوا للطواف بالبيت ، فتُقدِّم كل قبيلة هَدْيها قرباناً لصنمها . فإذا نحر الناس ذهبوا إلى ذى المجاز يتروَّون منه لصعود عرفات . وفى الأيام الثلاثة التى تسبق مجنة يُشْغَل الناس بالتجهز للحج عن كل مصارعة أو مصاولة .

وانقضت ثلاثة الأيام وقد أذعن الفتى البدوى لما أصابه ؛ إذ رأى ابن الخطاب قرناً لا يقهر . وتجهز الناس للانصراف من عُكاظ ، فكان عمر أسبقهم إلى هذا التجهز : دعا غلامه فأتاه بجواده حين أضحى النهار . ورأى شبان من نبلاء القبائل المختلفة هذا الجواد ، فأعجبوا بلونه الأدهم وأذنيه الصغيرتين ورأسه المترفع وساقيه الدقيقتين وبطنه الضامر . وكأنما أدركت بعضهم الغيرة لما رأوا من اعتزاز عمر بنفسه وبجواده ، اعتزازاً فيه صلف وغلظة ، فدعوه للسباق ، فإذا فرغوا من السباق استراحوا ثم انحدروا إلى مجنَّة بعد أن تنكسر القيلولة .

وقبل عمر دعوتهم ، فدَعوا فجيئوا بجيادهم ، وساروا جميعاً إلى فسحة البادية ، فاختاروا حلبة سباق فيها . وامتطى كلٌّ جواده ودفعه حين أشار المشير ، فإذا عمر وجواده كأنهما قطعة واحدة لا يدرى الشاهد أهى تنهب الأرض أم تلقى فى يد الريح التراب . ولم يكن إعجاب أهل السوق بفوز عمر فى السباق دون إعجابهم بفوزه فى المصارعة . ولم يقف أمر الفتيات عند الإعجاب به ؛ فقد أخذ منهن بمجامع القلوب وملك عليهن كل الجوارح . وكانت صاحبته التى أمتعته بأحلى سويعات عكاظ هذا العام تبتسم بينهن ابتسامة زادتّهن غيرةً ، وجعلتهن يرمقنها من عيونهن العربية الجميلة بنظرات لعلها بعض ما عناه عمر ابن أبي ربيعة حين قال :

حَسداً حُمِّلْنَــــه من أَجْلِهَـــا وقديمـاً كان فى النـاس الحَسَدْ

وأفاض الناس من عكاظ إلى مجنَّة ثم إلى ذى المجاز ، فقضوا المناسك لأصنامهم ، ورجعت كل قبيلة منهم إلى مقامها من شبه الجزيرة .

واستدار العام وجاء موسم عكاظ ، فكان لعمر فيه مثل ما كان له فى العام الذى سبقه ، وظل ذلك شأنه عدة سنوات .

ثم إنه تأخر عاماً عن مفتتح السوق ، فافتقده الناس وتساءلوا عن سبب تخلفه ، وزاد

obeikandi.com

تساؤلهم انه كان قد بدأ يزاول التجارة ويشتغل بها . وكيف لتاجر له من المكانة ما لعمر أن يغيب عن سوق العرب العامة ومعرضهم السنوى الأكبر ! لكنهم عرفوا أنه اضطلع بالمهمة التى كان يضطلع بها آباؤه من قبيلة عَدِىّ بن كعب ،مهمة السِّفارة بين قريش وغيرها من القبائل كلما حدث بينهم خلاف ، وأن هذه المهمة وُكلت إليه فى أمر ذى بال جدّ بين إحدى قبائل قريش وجماعة ثقيف . ولشد مااغتبط أهل السوق جميعاً حين علموا أن عمر جاء إليهم ليقضى معهم ما بقى من أيام السوق ، وأنه أتم سفارته على خير حال . جاء ممتطياً جواده الأدهم ، فبدأ يباشر تجارته وكانت قد سبقته . ثم لم تثنه مباشرتها عن المصارعة ، ولم يزعزع ما له من شهرة بين أصحابه أنه صاحب خمر وصاحب نساء .

وبُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا العام ، ثم أذاع فى الناس رسالته ، فانبرى له عمر يحاربه بحمية الشباب والفتوة حرباً جاهلية عنيفة أشد العنف . فإذا جاء إلى عكاظ ، وجلس إلى الناس وصادف حديثهم سيرة الرجل الذى قام فى قريش يدعوها إلى نبذ الأصنام وعبادة الواحد الأحد ، هاج عمر وماج ، وأطلق لسانه فى محمد ، وعابه بما فرَّق من كلمة قريش وبما صبأ عن دين آبائه وأجداده . ولقد كان الغضب يبلغ منه لخروج محمد على قومه ، فلا يُحجم عن التهديد بقتله لولا منع بنى هاشم له وما يجره هذا القتل من ثارات لا قِبَل لمكة بها .

وظل ذلك شأنه حتى أسلم ، فصار يدافع عن دين الله وعن رسول الله بمثل الحمية التى كان يحاربهما بها قبل إسلامه .

هذه صورة من شباب عمر بن الخطاب ، ترتسم أمامك واضحة تمام الوضوح كلما ازددت إمعاناً فى قراءة كتب التاريخ الإسلامى قديمها وحديثها . فإذا أردت أن تعود إلى ماقبل شبابه لم تجد فى هذه الكتب ما يعينك على رسم صورة من طفولته وصباه فى هذا الوضوح ، وإن أسعفتك فى أمره بخير مما تُسعفك فى أمر الكثيرين ممن عاصروه .

فهو من قبيلة عدىٍّ بن كعب . وهى قبيلة عدنانية من قريش ، انتهى إليها الشرف كما انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن فى مقدمتها هاشم ، وأمية ، وتيم ، ومخزوم . على أن عدياً لم تبلغ من المكانة فى مكة قبل الإسلام ما بلغه بنو هاشم وبنو أمية ؛ فلم يكن لها من مناصب مكة الدينية أو الزمنية ، ولم يكن لها من الثروة ما لهم . مع ذلك كانت تنافس بنى عبد شمس الشرف ، وتحاول أن تبلغ مكانتهم . وظل هذا التنافس ممتداً على الأجيال ، حتى اضطر بنو عدى فى حياة الخطاب بن نفَيْل والد عمر إلى الجلاء عن

منازلهم القائمة عند الصفا والانحياز إلى قبيلة بنى سهم والمقام فى جوارهم . وقد حفز هذا التنافس أجداد عمر، فكانوا ، على قلة عددهم وعلى ضعف مكانتهم من القبائل الكبرى ، ذوى دراية وعلم وحكمة .

وقدّمهم علمهم وقدّمتهم حكمتهم إلى مكان السِّفارة والحكم فى المنافرات ، فكانوا المتحدثين عن قريش إلى غيرها من القبائل فيما ينجُم من خلاف يتسنى حسمه بالمفاوضة . وكانت حكومتهم تُرضَى فى المنافرات ، وكانوا ذوى بلاغة وحسن عبارة . وقد أدت بهم الحكمة إلى أن ظهر بينهم زيد بن عمرو أحد من اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنعوا من أكل ذبائحها . ثم كان بينهم عمر بن الخطاب ، وحسبك به فخراً لقبيلة ينتمى إليها .

هذه قبيلة عمر . أما أبوه فهو الخطاب بن نُفَيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله ابن قُرْط بن رَزاح بن عدىّ بن كعب . وعدى هو أخو مرة الجد الثامن للنبى . فأما أمه فَحنْتَمةُ بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

وقد كان الخطاب شريفاً فى قومه ، لكنه لم يكن ذا مال ولا خدم . كتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو على مصر كتاباً يسأل فيه عن أصل المال الذى جمعه بها ؛ فغضب ابن العاص وكان مما أجاب به : « . . . ووالله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتنى ؛ فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك . وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير منى، فإذا كان ذلك فوالله ما دققت لك يا أمير المؤمنين باباً ولا فتحت لك قفلاً » .

وبلغ الغضب من ابن العاص لكتاب عمر أن قال لمحمد بن مسلمة حين ذهب إليه من قبل عمر يحاسبه : « . . . لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر ! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية (١) لا تجاوز مأبض ركبتيه ، وعلى عنقه حزمة حطب ، والعاص بن وائل فى مزرّرات الديباج » . فقال له محمد : إيهاً عنك يا عمرو ! فعمر خير منك ، وأما أبوك وأبوه فإنهما فى النار . . . » .

وكان الخطاب فظاً غليظاً . مرَّ عمر فى خلافته يوماً بمكان كثير الشجر يقال له ضجْنان ، فقال : « لقد رأيتنى وإنى لأرعى على الخطاب فى هذا المكان ، وكان والله ماعلمت فظاً غليظاً » . وفى رواية الطبرى أن عمر لما مر فى خلافته بضجنان قال : لا إله إلا الله المعطى ما شاء من شاء ! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادى فى مدرعة

---

(١) عباءة قطوانية : بيضاء قصيرة الخمل .

صوف ، وكان فظًّا يتعبنى إذا عملت ، ويضربنى إذا قصرت . وقد أمسيت وليس بينى وبين الله أحد . . . » ثم تمثل بأبيات من الشعر[١] .

ولم يكن الخطاب يتزوج النساء لشهوة ، بل ليكثر ولده ؛ فقدكانت كثرة الولد بعض ما تفاخر به العرب ، وأنت تذكر أن عبد المطلب جدّ النبي عليه السلام أحسّ قلة حوله فى قومه لقلة أولاده ، فنذر إن ولد له عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه لينحرنّ أحدهم لله عند الكعبة . وقد ذكرنا أن بنى عدى كانوا يحسون قلة حولهم لقلة عددهم ، ولذلك أجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا . فلا عجب أن يلتمس الخطاب كثرة الولد يمتنع بها ما استطاع .

وكان الخطاب رجلاً ذكيًّا ، موفور الاحترام فى قومه ، شجاعاً يخوض المعارك على رأس بنى عدىّ فى جرأة وثبات جنان . اشتركت بنو عدى فى حرب الفجار ، فكان على رأسها زيد بن عمرو بن نفيل والخطاب بن نُفيل عمه وأخوه لأمه ؛ ذلك أن نفيلا كان على جَيْداء فولدت له الخطاب وعَبْدَنُهم . ثم مات نفيل فتزوج ابنه عمرو زوجته جيداء ، وكان من أم غيرها ، وقدكان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية . وولدت جيداء لعمرو زيد بن عمرو ، فكان للخطاب أخاً وابن أخ[٢] . وتقارب الرجلين فى السن هو الذى جعلهما على رأس قومهما فى حرب الفجار .

ولما اعتزل زيد بن عمرو عبادة الأوثان وامتنع من أكل ما يذبح لها ، جعل يقول لقومه : « أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى منه وتذبحوها لغير الله ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيرى ! » ثم قال الشعر يدعو إلى نبذ عبادتها[٣] . عند ذلك خاصمه الخطاب واشتد فى خصومته

---

(١) هذا نص الأبيات كما أوردها الطبرى وغيره :

لاشىء فيما ترى تبقى بشاشتـــــــــه   يبقى الإله ويودى المال والولـــــــد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنـــــــه   والخلد قد حاولت عاد فما خلـــدوا
ولا سليمان إذ تجرى الريـــــاح له   والإنس والجن فيما بينها تـــــرد
أين الملوك التى كانت نوافلهـــــا   من كل أوب إليها راكب يفـــد
حوضاً هنالك مورداً بلا كـــذب   لا بد من ورده يوماً كما وردوا

(٢) راجع الأغاني ج ٣ ص ١٢٣ طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) ينسب إلى زيد بن عمرو فى ذلك شعر غير قليل أورده صاحب الأغاني ، وأورده ابن هشام فى السيرة ، وأورده غيرهما . ومن شعره البيتان اللذان أثبتناهما فى هذا الفصل ، وهما من أبيات كثيرة ومنه قوله : =

obeikandi.com

وألّب عليه جماعة من قريش أخرجوه من مكة ومنعوه أن يدخلها ، وكان الخطاب أشدهم فى ذلك وأقساهم عليه .

وقد تزوج الخطاب ، فيمن تزوج ، حَنْتمة بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم ، وهى لخالد بن الوليد ابنة عم لحاً ؛ فالمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم جدهما معاً . وكان المغيرة المخزومى سيداً من سادات قريش وبطلاً من أبطالها . وكانت له إمارة الجند التى كانت لسيد بنى مخزوم ، وكان لذلك يلقب صاحب الأعِنَّة . وكان لمكانته من قريش أول من نصح إلى عبد المطلب جدِّ النبى ألا يذبح ابنه عبد الله وفاء لنذره ؛ فقد قال له : « والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه . فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه » . وكانت حنتمة لمكانتها هذه مرعية الجانب من زوجها ، مفضلة عنده على غيرها من ضرائرها . فلما ولدت عمر فرح أبوه لمولده ، وقرب للأصنام مبالغة فى إظهار سروره ، ونال فقراء بنى عدى الكثيرون يومئذ من الطعام ما قلَّ عهدهم به .

متى وُلد عمر ؟ ذلك أمر لا سبيل إلى القطع به . فالثابت أنه مات فى أحد الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة . لكن الخلاف قائم على سنّه يوم مات : قيل كان ابن خمس وخمسين ، وقيل كان ابن سبع وخمسين ، وقيل كان ابن ستين ، وقيل كان ابن ثلاث وستين ، وقيل غير ذلك . وأكبر الظن أنه مات حول الستين . فإذا صح ذلك كان قد هاجر وهو دون الأربعين . وليست صحة هذا الظن مما نستطيع الجزم به .

ونشأ عمر فى طفولته وصباه نشأة أمثاله من أبناء قريش ، ثم امتاز عليهم بأنه كان ممن تعلموا القراءة ، وهؤلاء كانوا قليلين جداً ، فلم يكن فى قريش كلها حين بُعث النبى غير سبعة عشر رجلاً يقرءون ويكتبون . ونحن نقول اليوم إنه امتاز على أقرانه بذلك . أما العرب لذلك العهد فلم يكونوا يعدون القراءة والكتابة مزية ، بل كانوا يرغبون عن تعلّمها وعن تعليمها أبناءهم .

= أسلمت وجهى لمن أسلمـــت له المزن تحمل عذباً زلالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمـت له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما استوت شدهـــا سواء وأرسى عليها الجبـــالا

وقد روى صاحب الأغانى بإسناد أن سعيد بن زيد بن عمرو وعمر بن الخطاب سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد فقال : « يأتى يوم القيامة أمة وحده » .

ولما شب عمر جعل يرعى لأبيه إبله بضَجْنان وغير ضجنان من ضواحى مكة . وقد ذكرنا حديثه عن أبيه وقسوته عليه حين رعيه إبله . وروى صاحب العقد الفريد أن عمر قال يوماً للنابغة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له . قال : « وإنك لقائلها ؟ » قال « نعم ! » . قال : « لطالما غنَّيت بها خلف جمال الخطاب » . وكان رعى الإبل بعض ما يعهد به إلى أبناء قريش على اختلاف منازلهم من الشرف .

ولما تدرَّج عمر من الصبا إلى الشباب بدا فى مظهر من القوة بذّ به أقرانه . فاقهم طولاً وجسامة ، حتى لقد رأى عوف بن مالك الناس جمعوا فى صعيد واحد ، فإذا رجل قد علاهم جميعاً على نحو يقف النظر ، فسأل عنه ، فقيل : هذا عمر بن الخطاب[1] . وكان أبيض اللون تعلوه حمرة ، أعسر أيسر ، فى رجليه رَوَحٌ يسرع به فى مشيته .

وقد حذق من أول شبابه ألواناً من رياضة البدن ؛ حذق المصارعة وركوب الخيل والفروسية . لما أسلم لقى رجل راعياً فقال له : أشعرت أن ذلك الأعسر الأيسر أسلم ؟ فقال الراعى : الذى كان يصارع فى سوق عكاظ ؟ فلما أجاب الرجل أنه هو ، صاح الراعى : أما والله ليوسعنهم خيراً أو ليوسعنهم شرًّا . وكان ركوب الخيل من أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته . أقبل يوماً فى خلافته على فرس يركضه حتى كاد يوطئه الناس ، وعجب الناس حين رأوه فقال : وما أنكرتم ! وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته . وكان له فى الحرب مواقف ورثها عن أخواله بنى مخزوم . وذلك قول أبى بكر فى مرض وفاته : « وددت أنى كنت إذ وجّهت خالد بن الوليد إلى الشام وجهّت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدىَّ كلتيهما فى سبيل الله » .

وكما حذق الفروسية والمصارعة وغيرهما من ضروب الرياضة وألوانها ، تذوق الشعر ورواه . كان يسمع الشعراء فى عكاظ وفى غير عكاظ ، ويحفظ عنهم ويروى ما يروقه من شعرهم ، وكان له من بعدُ أحاديث طويلة مع الحطيئة وحسان بن ثابت والزِّبرقان وغيرهم . ثم إنه برز فى معرفة أنساب العرب إذ تعلمها عن أبيه ، فصار من أنسب العرب للعرب . وكان جيِّد البيان حسن الكلام . لهذا كله كان يذهب فى سفارات قريش إلى غيرها من القبائل ، وكانت حكومته تُرضىَ فى المنافرة كحكومة أبيه من قبله .

---

(١) فى رواية ابن سعد فى الطبقات : « فإذا رجل قد علا الناس ثلاثة أذرع ، قيل من هذا ؟ قيل : عمر . ابن الخطاب » .

وكان عمر ، كغيره من شبان مكة ورجالها ، محبًّا للشراب متوفراً عليه . بل لعله كان أشد من أمثاله ولعاً به . كذلك كان له صَدْرَ شبابه غرامٌ بالغانيات ، جعل الذين يترجمون له يُجْمعون على أنه كان صاحب خمر وصاحب نساء . وإنما كان يجرى فى هذا على مألوف قومه ؛ فقد كان لأهل مكة بالنبيذ غرام أى غرام ، وكانوا يجدون فى النشوة به نعيماً أى نعيم ، وكانوا يتخذون من جواريهم وما ملكت أيمانهم متاعاً للهوهم وشهوتهم ، ويجدون فى غير الجوارى سلوة وَجْدِهم وغرامهم . وشعرهم فى الجاهلية يتحدث عن ذلك ويفتنُّ فيه . ومن بعد الإسلام كان شعر عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فتنة لغانيات مكة ممن ورثن عن أمهاتهن وخالاتهن نزوعاً إلى الهوى أثمه الإسلام ولم يكن مأثماً قبله .

فلما تم لعمر شبابه هوت إلى الزواج نفسه . وقد ورث عن قومه ميلا لكثرة الزوجات طلباً للولد . فتزوج فى حياته تسع نسوة ولدن له اثنى عشر ولداً : ثمانية بنين وأربع بنات . تزوج زينب بنت مظعون فولدت له عبد الرحمن وحفصة ، وأم كلثوم بنت على بن أبى طالب فولدت له زيداً الأكبر ورقية ، وأم كلثوم بنت جرول بن مالك فولدت له زيداً الأصغر وعبيد الله . وقد فرَّق الإسلام بين عمر وأم كلثوم بنت جرول . وتزوج جميلة بنت ثابت بن أبى الأفلح فولدت له عاصماً . وكانت جميلة هذه تدعى عاصية ، فغير النبى اسمها ، وقال لها : بل أنت جميلة . وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام ابن المغيرة فولدت له فاطمة . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو فولدت له عِياضاً . أما لُهَيَّة فأم ولد ، وولدها عبد الرحمن الأوسط . وفُكَيهة أم ولد كذلك وقد أنجبت زيداً أصغر ولده . كما أن عبد الرحمن الأصغر أمه أم ولد اختلف المؤرخون فى اسمها .

وقد تزوَّج عمر أربعاً من أولئك النسوة بمكة ، وخمساً بعد هجرته إلى المدينة . على أن جمعهن لم يكتمل قط فى بيته . فقد رأيت الإسلام فرّق بينه وبين أم كلثوم بنت جرول ، وقد طلق نسوة غيرها : طلق أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وطلق جميلة التى ولدت عاصماً . ولو أن السن امتدت به لتزوَّج غير أولئك النسوة التسع . فقد خطب أم كلثوم بنت أبى بكر وهى صغيرة ، وهو على إمارة المؤمنين ، وأرسل فيها إلى أختها عائشة ، فسألت أم المؤمنين أختها فى ذلك فرغبت عنه ، وقالت إنه خشن العيش شديد على النساء . وخطب كذلك أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ، فكرهته وقالت : يغلق بابه ويمنع خيره ، ويدخل عابساً ويخرج عابساً .

وما ذكرته أم كلثوم بنت أبى بكر عن شدته وغلظته ، وما ذكرته أم أبان عن عبوسه

وقسوة عيشه ، كان بعض طبعه فى شبابه ، ثم لزمه سائر حياته . لما استُخلف كان أول دعائه قوله : « اللهم إنى غليظ فليِّنى ! اللهم إنى ضعيف فقوِّنى ! اللهم إنى بخيل فسخِّنى ! » ولقد ورث الغلظة عن أبيه وقسوته عليه فى صباه ، ثم أعانته قوة بدنه من بعد على بقائها . أما ما ذكر عن بخله فسببه أنه لم يكن غنياً ، وأن أباه لم يكن غنياً . وقد ظل متوسط الحال فى الغنى طيلة حياته ، مع أنه كان يعمل فى التجارة كالكثيرين من أبناء مكة . ولعل غلظته هى التى حالت بينه وبين الإفادة من التجارة ما أفاد غيره . فهو لهذه الغلظة لم يكن يستطيع بالتجارة أن ينبع الماء من الحجارة ، ولا أن يحيل التراب ذهباً ، على تعبير قومه من قريش . هذا مع أنه لم يكن يقف من تجارته عند رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام ، بل كان يذهب إليهما وإلى غيرهما من بلاد فارس والروم . لكنه كان فى رحلاته هذه أكثر اشتغالاً بتثقيف ذهنه منه بإنماء تجارته . وقد أشار المسعودى فى مروج الذهب إلى رحلات عمر فى جاهليته وأنه لقى فى أثنائها كثيراً من أمراء العرب وتحدث إليهم . وأغلب الظن أن ما كان يقوم به من السِّفارة عن قريش ، وما بلغه من المعرفة بالأنساب وأيام العرب ، وما اطّلع عليه فى أثناء قراءاته فى كتب عصره ، قد جعله أكثر حرصاً على الكسب لزيادة علمه منه على الكسب لنماء ماله .

وهذه حال تجعل صاحبها أكثر اعتداداً بذاته واعتزازاً بنفسه . فصاحب المال فى حاجة إلى إدامة صلاته الحسنة بالناس ، محافظة على ماله وطمعاً فى تكثيره . والعامل فى التجارة نجاحه فيها بحسن حيله وافتنانه فى أساليبها . أما طالب الحكمة والراغب فى المعرفة ، فيستهين بالمال ويذل الدنيا ، لأن الحرص على المال يصرفه عن الحكمة ويزيده تعلقاً بالدنيا وإذعاناً لذوى السلطان فيها . ومن أذل الدنيا واستهان بالمال وطلب الحكمة والمعرفة اعتز بنفسه أيما اعتزاز ؛ وقد يبلغ من ذلك أن يعتزل الناس ازوراراً عنهم ، ورغبة عما بأيديهم ، وتسامياً عليهم . وهذه مرتبة لم يبلغها عمر فى شبابه ، فأما الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالذات فكان له منهما أوفر نصيب .

والتماس عمر أسباب المعرفة قد جعله منذ شبابه يفكر فى شئون قومه وما يصلحهم ؛ ثم جعله اعتزازه بنفسه يتعصب لرأيه فيما ينتهى إليه من ذلك ، فلا يقبل فيه جدلاً . وقد مالت به شدته ومال به بأسه إلى أن يبلغ بتعصبه حد العنف ، وأن يناضل عن رأيه بيد البطش ، كما يناضل عنه بحدة اللسان . لكن ذلك لم يمنعه من أن يقلب آراء غيره فيما بينه وبين نفسه ، ليكون أبلغ حجة فى دفعها وأقوى يداً فى القضاء عليها .

ولم تكن الآراء فى مكة ولا فى غيرها من بلاد العرب لتختلف فى شئون الاقتصاد وشئون الاجتماع وما إليهما ؛ فقد ألف الناس فى هذه الشئون ألواناً من الرأى ، ورثوها عن آبائهم ، وأخذوا بها فى حياتهم ، واطمأنوا إليها فيما بينهم من صلات ؛ وإنما وقع الخلاف على دينهم وعباداتهم . ذلك أن النصارى واليهود المقيمين بينهم كانوا ينكرون عبادة الأصنام ، ويرونها باطلاً يجب أن يتنزه العاقل عنه . وقد كان الذين رآهم العرب ببلاد الروم فى أثناء رحلة الصيف من أمثال هؤلاء اليهود والنصارى أرقى من العرب حضارة ، وكانوا ينسبون رقيهم إلى أديانهم . ثم إن المبشرين بالمسيحية فى ذلك العصر كانوا ذوى نشاط فى الدعوة إلى دينهم والتبشير به مثل نشاطهم اليوم . لذلك صبأ من العرب أفراد ذوو حكمة أنكروا الأصنام وعبادتها .

ترى أصبأ عمر ، وهو القارئ الكاتب ، مع الصابئين ؟

كلا ! بل كان حرباً على هؤلاء أهول الحرب . وكان يرى فى خروجهم على دين قومهم تقويضاً لركن الجماعة العربية ، ويرى لذلك محاربتهم والقضاء عليهم حتى لا يستفحل أمرهم . ولعله لم يكن متعصباً فى هذا الرأى للأصنام وعبادتها تعصبه لقومه ، حرصاً على نظامهم وعلى ما يكفله النظام من إمساك كيانهم وشد أزرهم إزاء غيرهم من الأمم .

والواقع أن العالم اضطرب منذ أقدم العصور بين أمرين جوهريين لحياته ، وهو لا يزال حتى اليوم مضطرباً بينهما ، ينصر أحدهما حيناً وينصر الآخر حيناً . هذان الأمران هما الحرية والنظام : حرية الفرد ، ونظام الجماعة . فالجماعة لا حياة لها إلا بالنظام . والفرد لا حياة له إلا بالحرية . فإذا تعارضت حرية الفرد ونظام الجماعة فأيهما نؤيد ؟ النظام لا ريب ، فحرية الفرد لا كفيل لها إلا نظام الجماعة . وإذا أهدر نظام الجماعة أهدرت حرية الفرد معه . لكن ! أليست لحرية الفرد حدود تجعلها لا تتعارض ونظام الجماعة ! أو ليس لنظام الجماعة حدود كذلك تجعله لا يتعارض وحرية الفرد ! هذه الحدود هى التى كانت ولا تزال موضع الخلاف . فلحرية الفرد حدود فى الحياة الاقتصادية ، وفى الحياة الاجتماعية ، وفى الحياة السياسية ، وفى غير هذه من مظاهر الحياة . ولنظام الجماعة كذلك حدود فى مظاهر الحياة ومرافقها جميعاً . ولطالما قامت الثورات وشبت الحروب بسبب الخلاف على هذه الحدود للحرية وللنظام فى الأمة الواحدة وفى علاقات الأمم بعضها ببعض . بل إن الحرب كثيراً ما شبت لأغراض السيادة

والاستعلاء ، ثم لم يلبث الدعاة لها أن استظلوا بلواء الحرية حيناً ، وبلواء النظام العالمى الكفيل للحرية العامة حيناً آخر .

وقد تواضع الناس فى كثير من الأزمان على أن حرية الرأى والعقيدة لا يمكن أن تتعارض مع نظام الجماعة ، مادامت محصورة فى حدود العقيدة والرأى والتعبير عنهما . لكن ذلك لم يكن أمراً مقرراً فى عهد عمر . وكثيراً ما شبت الحرب بين فارس والروم تعصباً لدين على دين . بل لقد شبت الحروب الصليبية بعد ذلك بين أوربا المسيحية والمسلمين ، وظلت أزماناً طويلة متصلة الضِّرام بسبب العقيدة . ذلك لأن الدين اعتبر من أسس الحياة الاجتماعية . وقد أدى ذلك إلى اعتبار الذين يدينون بغير دين الدولة فى حكم الأجانب عنها ، إذا تسامحت معهم لأنهم ورثوا عقائدهم عن آبائهم فإنها لن تجعل لهم من الحقوق ما لبنى دينها . لاعجب إذاً أن يكون عمر فى جاهليته عدوًّا لمن يعبدون غير الأصنام . ولا عجب أن يكون حرباً على من صبأ من بنى قومه على عبادة ما كان يعبد آباؤه وأجداده .

ولم يُغْنِ عن هؤلاء الصابئين عنده أنهم كانوا ذوى حكمة ورجحان عقل ؛ بل لعل حكمتهم ورجحان عقلهم جعلاهم أكبر جريرة فى نظره . فالناس لا يتبعون الجهال منهم ولا يتابعون عامتهم ، وإنما يتبعون من بنى عشيرتهم من عرفوا حسن بصره بالأمور ، ودقة منطقه فى تحرى الحق . فإذا جاز لقسّ بن ساعدة الإيادى أن يعيب أوثان العرب فهو نصرانى له من دينه ما يعذره . أما زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبد الله بن جحش وأمثالهم من أهل مكة الذين انصرفوا عن عبادة الأصنام ، وقال بعضهم الشعر فى التوحيد ، فلا عذر لهم ولا مفرَّ من خصومتهم وحربهم . فلو أنهم تُركوا وشأنهم لأضلوا جمهور الناس وفرّقوا كلمتهم ، ولأوشكوا أن يثيروا فى الأرض الفساد . وهذه الحدة من عمر وأمثاله قد حفظت على قريش وحدتها ، وعلى مكة مكانتها ، وجعلت الحكماء يقصرون حكمتهم على أنفسهم ، فلا يثيرون غيرهم لاتّباعهم ، وتغيير ما ورث الناس من عقائد آبائهم وأجدادهم .

وقد كان عمر من أشد قريش على الصابئين فيها وأكثرهم جرأة عليهم ، وأقساهم معاملة لهم . وكان له من غلظته ومن سرعته إلى الغضب ما يدفعه إلى المبالغة فى شدته . وهو لم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين ، فكان شبابه يذهب به فى التعصب لرأيه إلى أبعد مدى . وقد اقترنت حدته فى التعصب لرأيه بغلظته وقسوته ، فكان يحارب الخارجين على عبادة الأصنام أشد الحرب ، ثم كان أشد حرباً للذين يعيبونها .

فى هذا الحين أذن الله فبعث محمداً إلى قومه يدعوهم للهدى ودين الحق . فلما بدأت دعوة التوحيد تنتشر ، أخذ المتعصبون للأصنام من أهل مكة يعذبون المستضعفين ممن أسلموا ليردوهم إلى عبادة الأصنام.وكان عمر بن الخطاب من أشد أهل مكة خصومة للدعوة الجديدة ومحاربة لها ، وسعياً لفتنة الذين اتبعوها .

ذكر ابن هشام أن أبا بكر مرّ به يوماً وهو يضرب جارية ويعذبها لتترك الإسلام ، ولقد ظل يضربها حتى ملَّ لكثرة ما ضربها . عند ذلك تركها وقال : إني أعتذر إليك ! إني لم أتركك إلا ملالة . وأجابته الجارية : كذلك فعل الله بك . وابتاع أبو بكر الجارية فأعتقها .

لم يكن عمر يحارب محمداً ودعوته تعصباً وجهلا ؛ فقد رأيته من أحكم أهل مكة وأكثرهم علماً . وهو قد سمع من أقوال محمد ماأعجبه ، فلم يزد ذلك خصومته للدعوة الحديثة إلا لجاجة وقوة ، ولم يزده إلا إمعاناً فى إيذاء من يستطيع إيذاءهم من المسلمين ، حتى كانوا يلقون منه البلاء أذى لهم وشدة عليهم . ذلك بأنه رأى فى متابعة هذا الرجل تقويضاً لنظام مكة وإثارة للفساد فيها . ومكة ونظامها وطمأنينة أهلها أحب إليه من محمد ومن دعوته التى فرقت كلمة قريش وهونت مكانة البلد الحرام . والصبر على هذه الدعوة يزيد كلمة قريش فرقة ومكانة مكة تهويناً . ولئن وقفت قريش من محمد عند مناوأة الذين اتبعوه ومحاولة رد الضعفاء منهم عن دينهم ، ليذهبن ذلك بريح مكة ، وليجعلن قريشاً مضغة فى أفواه العرب جميعاً .

وأى ذنب جنى هؤلاء الضعفاء حتى يعذَّبوا ! إنما الذنب ذنب محمد وسحر بيانه وقوة منطقه . فهذا البيان الساحر هو الذى خَلب عقول الضعفاء وعقول غيرهم ممن صبئوا عن دين آبائهم وأجدادهم . فلو أن محمداً مات لانقضت الفتنة وانجلت الغمة ، وأظل السلام البلد الحرام وما قتل فرد لنجاة قبيلة ، بل لنجاة قبائل مكة جميعها ، فتعود كلمتها إلى الاجتماع ، ونظامها إلى الاستقرار ! !

لكن محمداً يقول كلاماً حسناً . وهو لم يزد على ترديد هذا الكلام ودعوة الناس بالحسنى لاتّباعه . وهو بعدُ رجل لم تجرِّب عليه قريش كذباً قط . أفيقتل لغيرشىء إلا أن يقول ربي الله ، ويقول ذلك لأنه يعتقده ويؤمن به !

وكيف السبيل إلى قتله أو التخلص منه وهو من بنى هاشم ، وبنو هاشم يمنعونه ! وبين الذين آمنوا به واستجابوا لدعوته وقاموا معه جماعة ذوو مكانة ينتمون إلى قبائل عزيزة تمنعهم كما يمنع بنو هاشم محمداً . فأبو بكر وطلحة بن عبد الله من بنى تيم بن مرة ؛

وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص من بنى زُهْرَة ، وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ؛ وأبو عبيدة بن الجراح من بنى فِهْر بن مالك ، والزبير بن العوام من بنى أسد . ولهؤلاء جميعاً من المكانة فى قبائلهم ما يقتضيها الذود عنهم إذا اعتدى معتد عليهم . فلو أن عمر حاربهم وحارب محمداً معهم وألّب قريشاً عليهم لأثار بمكة حرباً أهلية أشد خطراً على مكانتها من محمد ودعوته .

كانت نفس عمر تضطرب بهذه الخواطر كلما خلا إليها . فإذا خرج إلى قومه ورأى تفرق كلمتهم راجعه حرصه على أن تعود إلى مكة سكينتها بالقضاء على مصدر هذه الفرقة . وظل هذا الخاطر يتردد فى نفسه ، حتى أمر محمد من اتّبعه بالهجرة إلى الحبشة فراراً إلى الله بدينهم فلما رآهم عمر يفارقون أهلهم ووطنهم رقّ لهم ، وحزّ الألم فى قلبه لفراقهم ، وعظم عليه الأمر ، فثارت نفسه وطال تفكيره فى التخلص من محمد ودعوته . إنه إن يفعل يُرحْ قريشاً ويُرض آلهة الكعبة وآلهة العرب جميعاً . فإن أصابه بفعلته مكروه احتمله فى سبيل قريش وفى سبيل مكة . وقريش أهله ، ومكة وطنه . والمكروه فى سبيل الأهل والوطن سائغ مستحب .

ذلك ما استقر عليه عزمه . لكنه نسى أن لله فى الخلق حكمة ، وأن حكمته جل شأنه قضت أن يغلب عقل عمر ثورة غضبه ، فيؤمن بمحمد ليكون الفاروق الذى يتحدث الناس باسمه فى إجلال وإكبار إلى آخر الدهر .